منظمة الطليعة العربية في تونس

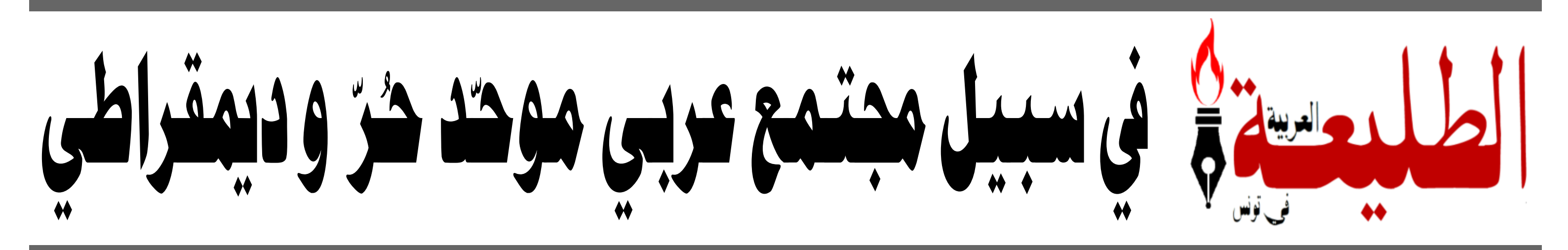
هيئة التأصيل والتطوير النظري

الفن والثورة

وجهة نظر بعثيّة



تونس 1991



الفن والثورة
وجهة نظر بعثيّة

يتضمن البحث قضيتين هما الفن والثورة العربية، وليس من اليسير الخوض بالتفصيل في اي منهما ، وما ارمي اليه في هذا البحث هو دور الفن في تحقيق الثورة العربية الشاملة ، والبحث في هذه الحالة يدرج في المجال السياسي ، ولكن لا بد من الالمام ببعض الجوانب الهامة والاساسية في الفن بشكل عام . وثمة ملاحظة لابد من ايرادها هنا وهي ان البحث يخاطب الجماهير بمختلف انتماءاتها واتجاهاتها ولا يقتصر على الفنانين وهواة الفن ، لذلك التمس العذر من ذوي الاختصاص في الفن اذا لم احقق رغبتهم في اعطاء الفن دوره كما يفهمونه من خلال اختصاصاتهم .

ما الفن ؟

الفن هو انعكاس الواقع الموضوعي في وعي الانسان ، بمعنى كل ما يصدر من الانسان من نشاط في المجتمع له صلة بالفن من قريب أو بعيد. فالحركات الرياضية ، وأساليب الانتاج ، وأصول العمران ، وكل مظاهر الحياة خاضعة للفن بشكل عام ، وأصبحت لفظة الفن من ابجديات العمل في المجتمع ، فن الخياطة وفن الطبخ ، فن السواقة ، فن الحياة الزوجية الخ ...

لكن بالمفهوم الجمالي للفن يمكن اعطاء تعريف عام للفن وهو « كل نشاط عملي أو ذهني يقوم به الانسان ويترك ارتياحا في النفس » وهنا تتعدد اشكال الفن لتشمل الرياضة والرقص والطقوس التي تترافق مع مراسيم الزواج أو الدفن عند معظم الشعوب ، وكذلك الغناء والموسيقى ، والرسوم والأعمال التشكيلية والتصوير الضوئي ، والسينمائي ، وفن العمران وتخطيط المدن الخ ...

وفي الادب نجد فن القصة وفن الرواية وفن الشعر وفن المقالة ، اذا الفن هو المعبر عن نشاط الانسان ، وحياة الانسان قائمة بالفن . فالحيوانات لا تدرك من معنى الفن الجانب الجمالي فيه ، قد تتفنن في صنع أعشاشها وأوكارها كما هو عند النحل والنمل وبعض العناكب والطيور واحياء أخرى ، ولكن ذلك خاضع للغريزة ، وغير قابل للتطور خلال أجيال عديدة كما هو عند الانسان المبدع . وقد رافق الفن الانسان منذ وجوده على الارض ، وارتبط به ارتباطا وثيقا كما سيتضح من العرض المبسط لتاريخ الفن بشكل عام .

الفن عبر التاريخ :

بدأ الفن مع حركة الانسان الاولى في البحث عن الغذاء ، وتطور من خلال نشوء المجتمعات البشرية ، فلا شك أن الانسان البدائي ، من

خلال نضاله في الطبيعة من أجل البقاء ، ابتكر فنونا في الحياة تسهل مهمته ، فصنع أدوات الصيد ، واخترع حركات ورموزا واصواتا تعينه على افهام الآخرين ، فكان صنع الاسلحة الحجرية أول أعمال النحت ، وكان الرقص حول طريدة تم صيدها اول فن للرقص ومراسيم الفرح . ولاشك أن حالات الحزن والفرح تترافق مع أصوات يطلقها الانســان أثناء انفعاله الوجداني معها ، ومن الرقص الجماعي والاصوات العفوية نشأ الغناء ، وتطور عبر الزمن وفي العصور التالية أبدع الانسان الفن التشكيلي ، فخلده على جدران الكهوف .

ومع توديع حياة الالتقاط والصيد ، وبالاستقرار في تجمعات كبيرة نسبيا حول الانهار وفي الاماكن الخصبة ، وجد الانســان متسعا للتفكير في ظواهر الطبيعة التي عجز عن تفسيرها في المرحلة البدائية فأرجعها الى قوى خارقة ، ومن تجربة الموت وهي حدث له الاثر الكبير في نفــس الانسان الاول ، استنتج الانســان قيما روحية تقدس الميت ، وترجو له حياة هنيئة في عالم آخر ، وكان للفن دور أساسي في تخليد الميت ، ومن نظرة الانسان الى ما وراء الطبيعة تكونت المعتقدات ، وظهر الكهنوت وارتبط به الفن ارتباطا وثيقا ، يقول هاوزر « لقد كان الكهنة أول من استخدم الفنان وحذا الحكام حذوهم فيما بعد » .

وتطور الفن من خلال تطور المجتمعات ، وظل يعكس الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، من خلال ارتباطه بالبنية الفوقية للمجتمع ، والمتمثلة في الثقافة العامة والمعتقدات والسياسة ، والانظمة الحقوقية ، ولعب الفن دورا تواصليا عبر الاجيال المتعاقبة كاللغة تماما ، فاهرامات مصــر ، والصروح العظيمة في بقاع العالم القديم في معظم مناطق الوطن العربي ، وفي أوربا وآسيا ، تتحدث للاجيال وتبوح بسر الاولين .

والفن فن من حيث هو تعبير عن الشعور ، وقيمة في المجتمع ، لذلك لا يصح الحديث عن فن بدائي وفن حديث كتمييز فني ، اذ البدائيــة

تتضمن مفهوم التخلف ، والحداثة لها مدلول زمني ، والمقارنة الصحيحة هي بين فن قديم وفن حديث وحسب .

يقول : ديفس « بما أن الفنون كاللغة ، جزء من وسائل الاتصال الكلية التي تتكون منها الثقافة فقد يجدر بنا أن نتبع مثال علماء اللغة في دقة المنهج وفي اسلوب البحث ... ويقول : ليس هناك فن بدائي رغم وجود مدى أرحب لمهارات وقدرات مستعمليه ، هناك فن جداري من العصر الحجري القديم ، وهناك نحت فلورنسي ، وهناك فن ماوري Maori للحفر على الجلد ، يعود الى القرن التاسع عشر ولكن ليس هناك فن بدائي ، فهذا التعبير مطاطي ، هلامي ، غير صحيح » .

وقد مر الفن في مراحل تاريخية نجملها في اربعة مراحل ، ولكل مرحلة خصائصها .

اولا : مرحلة الحرية :

كان الفنان فيها حرا من السلطة التي قيدته فيما بعد ، فأبدع أعماله بكل حرية ، ولم يكن بين الفنان وغيره من الافراد حاجز ، وكانت لغة الفن والابداع الفني مشتركة بين الجميع ، ولذلك عبر الفن القديم عن قيمة اجتماعية مشتركة ، ولا يهمك أن تعرف حياة الفنان فالجميع شركاء معه .

ثانيا مرحلة الارتباط بالكهنة والحكام :

وهي مرحلة اساسية من مراحل تطور الفن ، وخاصة في مجال العمارة والطقوس الجنائزية ، فالتاريخ خلد آثار الحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين ، ووادي النيل ، وفي مناطق أخرى من العالم ، وهي آيات من الروعة والجمال ، تتحدى الزمن ، كما ترك تماثيل وصورا منحوتة في واجهات المعابد ، وعلى الاضرحة يعجز الانسان المعاصر

محاكاتها . ، والفن لا يأخذ مداه الا في مجتمع يقدر الفن ، ولا شك أن اهتمام الكهنة والحكام بالفن من أجل الخلود كان دافعا لتطور هذا الشكل من الفن في الحضارات القديمة .

ثالثا : مرحلة التحرر بعد عصر النهضة :

واكب الفن عصر النهضة ، فتحرر من قيوده الكلاسيكية القديمة ومن ارتباطه بالنظام الكهنوتي ، فظهرت المدارس الفنية المختلفة ، وظهرت الابداعات الفنية في مختلف مجالات الحياة والادب .

رابعا : مرحلة الحداثة في بداية القرن العشرين :

تطور الفن مواكبا الثورة العلمية ونتائجها على المستوى العالمي ، ونمو الاحتكارات العالمية ، أخذ الفن سمات جديدة وتطور خلال الحرب العالمية الاولى وما بين الحربين العالميتين ، فأصبح يؤدي دورا كبيرا في حياة المجتمع واخذ مضمونه الاجتماعي بظهور الاشتراكية كنظام اجتماعي في اكثر من بلد .

علاقة الفن بالمجتمع :

الفن هو تكتيك الحياة الاجتماعية ، فلا معنى للفن بغياب المجتمع ، ويرتبط الفن بايديولوجية المجتمع حكما . « الفن يرتبط بالايديولوجية من جانبين ، **أولا** : ان الفن بوصفه عنصرا من نظام اجتماعي معين يبرز حتما كناقل للافكار السياسية والحقوقية والاخلاقية والجمالية والفلسفية ، وغيرها من افكار طبقات معينة في مجتمع ملموس معين . **ثانيا** : ان الفن ايديولوجي من حيث طبيعته بالذات ، ذلك أن الفن لا يعكس الواقع وحسب ، بل يقيمه أيضا ويفصح عن موقف معين منه » .

فالفن يتطور بتطور علاقات الانتاج في المجتمع ، فتتطور اساليبه وموضوعاته ومفاهيمه من مرحلة الى اخرى ، وقد تطور الفن في عصر النهضة فشهد تحولات في الجوانب التالية :

اولا : التحول في الموضوعات :

من الموضوعات الدينية ، الاسطورية والكلاسيكية التقليدية الـى موضوعات الاشخاص الواقعية ورسوم الفقراء والمعدمين .

ثانيا : التحول في الاساليب :

بالتخلي عن الاساليب القديمة المتشددة ، والاعتماد على الظل والنور واللون فظهرت الرومانتيكية والانطباعية .

ثالثا : التحول في المفاهيم الجمالية :

وذلك بابتكار قيم جديدة للجمال ، واصبح مقياس الفـن الحيـاة والواقع وليس المثل الاعلى ، حتى اصبحت اللوحة التي تحمل وجهـا بشعا مرغوبة اكثر من وجه كلاسيكي تصويري .

رابعا : التحول في المضمون :

تحول الفن من المحافظة ، الى الثورة والنقد .

خامسا : التطور في التقنيات :

أدى الى ظهور الاتجاهات الفنية المعروفة مثل : الوحشية ـ التكعيبية ـ السريالية ـ البنائية ـ التعبيرية ـ التجريدية ـ الخ . . .

هذا في مجال الفن التشكيلي ، وواكب هذا التطور ، تطور في جوانب أخرى من الفن ، في مجال الثقافة الادبية بشكل عام ، والحياة الاجتماعية، ودخل الفن في أساليب العمران والصناعة ، واصحت السلعة المصنوعة حاجة من جهة ، وقطعة فنية من جهة ثانية .

وارتباط الفن بالمجتمع يتحدد من اهداف الفن و « ان هدف الفن هو تفهم الحياة وتربية صفات خلقية وجمالية معينة في الناس ، وتنمية الخيال الابداعي الذي هو منتهى الضرورة ، لكل اشكال نشاط الناس المادي والروحي ، والفن اذ يؤثر في افكار ومخيلات واحاسيس وعاطفة الناس ، انما هو يلعب دورا في حياة المجتمع » .

واذا تقصينا مظاهر الفن في المجتمع ، ابتداء من حياة الفرد اليومية، نجد أن الفن هو الحياة الاجتماعية فتسريحة الشعر فن ، واستعمال أدوات التجميل والاصبغة على الوجه فن ، واختيار اللباس والزي فن ، واسلوب المحادثة والمخاطبة فن ، وهكذا تتعقد العلاقات الاجتماعيةويكون الفن كاشفا لها على نحو ما ، يقول : كارل يسبرز : « ان المعنى الاساسي للفن هو وظيفته الكاشفة فهو يكشف الوجود باضفاء شكل على ما ندركه » .

والفن بارتباطه الوثيق مع المجتمع ، يعكس طبيعة العلاقات في البنية الفوقية للمجتمع ، فهو المعادل للثقافة والسياسة والعلاقات العامة ، لذلك نرى الاهتمام الكبير بوسائل الاعلام وهي تقنيات فنية ، ومن يمتلك وسيلة الاعلام يسيطر على المجتمع . نخلص مما تقدم أن الفن هو صورة الحياة في المجتمع البشري ، وهو يتطور بعلاقة جدلية مع تطور المجتمع ، فيلعب دورا محافظا في فترة ما ، ويلعب دورا تحريضيا ثوريا في فترة أخرى ، ومن هنا نأتي الى دور الفن في الثورة عموما ، ونخص بالبحث الثورة العربية ، ولابد من تحديد معنى الثورة .

فما الثورة ؟

الثورة في مفهومها العلمي هي مجموعة التغيرات التاريخية (الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية) التي تشكل بمجموعها قفزة نوعية ، وتؤدي الى تغيير بنية المجتمع تغييرا جذريا . وقبل الحديث عن أسس الثورة العربية واهدافها ودور الفن في تحقيق الاهداف ، من المفيد أن نشير الى الحقائق التالية :

١ ـ **الثورة فعل انساني** ، تبدأ بتغيرات بسيطة ، وتتراكم عبر الزمن حتى تصل الى درجة لا تتحملها بنية المجتمع ، فيحدث التغيير باستخدام العنف (وهو الغالب) وتبدأ بالانقلاب على الواقع الفاسد وابعاد رؤوس السلطة ، والشروع في تغيير القوانين والانظمة .

٢ ـ **الثورة عملية هدم وبناء** في نفس الوقت ، فهي تهدم الانظمة والمؤسسات البالية ، وتوجد البديل الذي يواكب مرحلة التطورالجديدة، ولهذا لا تقيم الثورة بالسنوات ، بل تقيم من خلال عمل أجيال عديدة .

٣ ـ **الثورة تغيير شامل** لكل مناحي الحياة ، وهذا التغيير لا يكون بدرجة واحدة من التطور وبشكل عام تبقى الجوانب الفكرية والعقائدية محافظة اكثر من الجوانب الاخرى في المجتمع في مرحلة الثورة ، اذ يمكن تغيير العلاقات الاقتصادية باصدار قوانين ومراسيم ، ولكن لا يمكن تغيير القناعات بسهولة .

٤ ـ **الثورة الناجزة باهدافها** ، فاذا بقيت أهداف الثورة معلقة ، لم تتحقق الثورة ، وافضل تسمية ننعت بها حالة التغيرات الجارية هي « التحولات الثورية » .

٥ ـ **الثورة عملية تاريخية** تشترك فيها كافة الشعوب ، من خلال التواصل الحضاري والعلاقات الانسانية ، والمتعارف عليه علميا أن البشرية شهدت شكلين من الثورات ، اولاها : الثورة البرجوازية في أوروبا واشهر بؤراتها هي الثورة الفرنسية التي قضت على النظام الاقطاعي والملكي وأعلنت الجمهورية ، وقوانين حقوق الانسان ، وفصلت السلطة الدنيوية عن سلطة الكنيسة . وثانيها : الثورة الاشتراكية في روسيا القيصرية ١٩١٧ التي قضت على ركائز الاقطاع والبرجوازية الصناعية واسست دعائم الدولة الاشتراكية لاول مرة في تاريخ البشرية .

وماذا عن الثورات في التاريخ ؟

بمقياس العلم لم تكن ثورات ، بل تغيرات بسيطة ، تناولت جانبا في المجتمع ، وفي الغالب كان هدفها اقصاء المتنفذين من الحكام . وحتى لا نتجنى على التاريخ وعلى التراث نقول : الثورة البرجوازية في أوربا والثورة الاشتراكية في روسيا ، مدينتان للنضال الثوري عبر التاريخ ، فمن خلال تراكم المواقف الثورية كان التمهيد للثورتين .

والثورة لا يمكن أن تحدث الا بتوفر اسس ، حتى تعطي ثمارهاوتحقق أهدافها ، والآن نتساءل ؟

ما هي اسس الثورة العربية ؟

ان دراسة التراث لامتنا العربية ، يبين لنا أن الثورة العربية الشاملة لا يمكن تحقيقها بدون توفر الاسس التالية :

ما هي اسس الثورة العربية ؟

إن دراسة التراث النضالي لامتنا العربية ، يبين لنا ان الثورة العربية الشاملة لا يمكن تحقيقها بدون توفير الاسس التالية :

اولا ــ النظرية الثورية :

وهي مجموعة الاسس العلمية العامة التي تحدد سبل الانتقال الى المجتمع الجديد وهي الدليل والمرشد للجماهير الكادحة في عمليات التغيير والتطوير . والنظرية الثورية تحدد سمات الطريق للثورة ، فكل أمة لها سماتها الخاصة ، ومن خلال التجربة النضالية للامة العربية ، ومن خلال الاطلاع والمساهمة في تراث الفكر الثوري العالمي ، ومن منطلق الواقع العربي ، فان النظرية الثورية تحدد السمة الاساسية للنضال العربي وهي « التلازم بين النضال القومي والنضال الاشتراكي » فالنضال

القومي نضال من اجل تحقيق الوحدة القومية ، وتحقيق التحرر الكامل ، والنضال الاشتراكي ، نضال للقضاء على الاستغلال مصدر التخلف في الوطن العربي . ونجد معظم التنظيمات والحركات السياسية التقدمية في الوطن العربي تربط هدفي الوحدة والاشتراكية بهدف الحرية المسلوبة عبر التاريخ .

ثانيا ـ الحزب الثوري :

ان وجود التنظيم الطليعي ضروري لتحقيق الثورة ، وهذا التنظيم تحت اي اسم كان يبقى حزبا ثوريا ، ما دام يعتمد على النظرية الثورية ، وأداته الجماهير الكادحة ، ويؤمن بالاسلوب الثوري في تغيير بنية المجتمع .

ولن نتوسع في بنية الحزب الثوري لضيق المجال ، ولكن في واقعنا العربي ، ونظرا لوجود قضية مركزية توحد مأساة العرب ، ونظرا لتشابه الظروف في كافة الاقطار العربية ، فان الحزب الثوري بالضرورة حزب « قومي اشتراكي » ـ قومي في بنيته التنظيمية ، واشتراكي في بنيته الطبقية ، ويعتمد التلازم بين النضال القومي والنضال الاشتراكي في مواقفه العملية وطروحاته النظرية .

ثالثا ـ التنظيم الشعبي :

هل يمكن ان تنجز الجماهير الشعبية الثورة بدون تنظيم ؟ إن تحقيق الثورة مرهون بالنضال المشترك لكل الجماهير بمختلف فئاتها ، ولا يقتصر الامر على نضال الطليعة (الحزب الثوري) فقط ، لذلك لا يمكن تحقيق الثورة بدون ايجاد أطر تنظيمية شعبية ثورية تحدد للجماهير أهدافها المرحلية وسبل عملها ونضالها . ومن خلال التنظيم الشعبي يستطيع التنظيم الطليعي قيادة عمليات التحول الثوري المطلوب .

رابعا ـ الديمقراطية الشعبية :

عند استلام التنظيم الطليعي زمام السلطة لا بد من ترسيخ دعائم الديمقراطية الشعبية في الحكم ، بترسيخ القطاع العام ، والاعتماد على المنظمات الشعبية ، واعطاء حرية النقد والرقابة الهادفة ، والاعتماد على الاقتراع الشعبي (الانتخابات) في كل المجالات . ان اسس الثورة العربية متلازمة ، ولا يصح تقديم اساس على الاخر ، فلا يمكن نشوء التنظيم الطليعي بدون وضوح النظرية الثورية ، ولا يمكن تنظيم الجماهير تنظيما ثوريا بغياب التنظيم الطليعي .

إن الثورة لها أهداف استراتيجية ، واهداف الثورة العربية هي (الوحدة والحرية والاشتراكية) وباختصار شديد نحدد مضامين هذه الاهداف وسبل تحقيقها :

اولا ـ الوحدة :

هدف ثوري يقصد به ، تصفية كل اشكال التجزئة والانفصال بين اقطار الوطن العربي واقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد ، في ظل دولة عربيـة واحـدة .

والواقع العربي يؤكد ان الوحدة العربية لن تتحقق بفعل التطور الطبيعي ، لوجود معيقات داخلية وخارجية . وشروط تحقيقها كفعل ثوري مرهون بـ :

١ ـ تنظيم طليعي قومي ثوري اشتراكي .

٢ ـ لقاء القوى التقدمية بوجود هذا التنظيم الطليعي واقامة جبهات وطنية وقومية تقدميـة .

٣ ـ تبني اسس النظام الاشتراكي ، فالوحدة بالضرورة ذات مضمون اشتراكي بالنسبة لواقع الامة العربية .

ثانيا ـ الحرية :

هدف لا يساوم عليه احد ، ولكن يساء فهمه ، فالحرية لا تتحقق الا بالاستقلال السياسي التام من كل اشكال السيطرة الاستعمارية ، والتخلص من النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يستعبد ويستغل الجماهير الكادحة . ولهذا فالحرية مرهونة بتطبيق الديمقراطية الشعبية. وحرية الشعب العربي في كيانه الموحد ، فلا معنى لحرية السوري وشقيقه في لبنان او العراق او مصر يقتل وتسلب حريته ، ولا مبرر للمنطلق القطري . فاذا كنا نعتقد بأن الشعب العربي من المحيط الى الخليج هو شعب واحد ، فان نظرتنا لأي فرد في الوطن العربي كنظرتنا لاي فرد في القطر الواحد . والا لما كان هناك مبرر لوقوف أحدنا الى جانب شقيقه في قرية ثانية او بلد آخر في نفس القطر .

ثالثا ـ الاشتراكية :

هي النظام الذي ينتفي فيه الاستغلال ، والتجربة النضالية في الوطن العربي تؤكد أن طريق العرب الى وحدتهم القومية ، وحريتهم الكاملة ، عبر الاشتراكية ، فالطريق الرأسمالي مسدود لاسباب عديدة . فالاشتراكية هي الهدف المنشود لابناء المجتمع ، ولا تتحقق الحرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للجماهير الكادحة الا في ظل النظام الاشتراكي .

ان الحديث عن الثورة العربية واسسها العامة وأهدافها ، ضروري لفهم دور الفن الثوري في الوطن العربي . وفي هذا المجال يتساءل احدنا : هل حدثت الثورة العربية ؟

وبدون حرج نقول : لم تنجز الثورة العربية اهدافها لظروف موضوعية عديدة ، وفي مقدمتها المواقف المتخاذلة للانظمة العربية المرتبطة بصانعي التجزئة . والتاريخ النضالي للشعوب لا يعرف التراجع ، ولا بد من الوصول الى المجتمع العربي الاشتراكي الموحد ، وعندها نقول : حققت الثورة اهدافها .

دور الفن في الثورة العربية :

الحياة الاجتماعية قائمة بالفن ، ولكن ما نقصده في هذا المجال ، الفن بمفهومه المحدد بالانشطة الجمالية ، كالفن التشكيلي ، والفنون السمعية كالموسيقى والغناء ، والفنون العمرانية ، ونستثني من هذه الدراسة فنون الادب كالقصة والشعر ، ولا شك لها دور كبير في تعزيز أهداف الثورة وتحريض الجماهير للنضال من اجل تحقيق المجتمع المنشود ، (المجتمع العربي الاشتراكي الموحد) .

إن الفن كما أسلفنا هو انعكاس الواقع الموضوعي في وعي الإنسان ووعي الإنسان يتحدد من خلال العلاقات الإنتاجية في المجتمع ، وطبيعي أن علاقات انتاج قائمة على الاستغلال والمنافسة ، ستخلق وعياً معيناً وينعكس ذلك في انتاج الفنان ، ولكن قوانين تطور المجتمعات تحتم أن يتجاوز وعي الإنسان (بعض الافراد) شروط الحياة القائمة ، فيظهر الدافع للتغيير والتطور ، والفنانون والادباء هم اول من يتنبأ بالمجتمع الجديد ، والثورات التي حدثت في التاريخ ، سبقها مفكرون وفنانون وضعوا الجيل في تصورات معينة .

إن الفنان يمتلك حساسية لا تتوفر لسائر أفراد المجتمع ، ولذلك يرى المجتمع من زاوية حساسة ، فهو يحس بما يشوه هذا المجتمع ، وما يضفي عليه الجمال .

فيبدع في انتاجه الفني ، فاذا وجد مهتمين من المجتمع بانتاجه الفني ، سيبدع اكثر ، ومن خلال عمليات النقد غير المباشر يرتفع الفنان صعودا نحو قمة المجد ، فيصبح في المجتمع رمزا نضاليا ، يتلقى التقدير في كل مكان ، ويصبح لانتاجه الفني دور محرض ، لا يقل عن دور الفكرة والمثل الثوري والنشيد الثوري في معارك التحرير .

ولذلك يبدأ الفن بداية خجولة ، متواضعة في انتاج الفنان ، ثم يبدأ يتلمس طريقه لتغيير نظرة المجتمع نحو واقع افضل ، وبعبارة ادق ، يبدأ محافظا ثم يصبح فنا ثوريا محرضا على التغيير ، وهـذا الكلام لا يخص فنانا معينا ، وإنما الفن في إطاره التاريخي ، قد يعيش فنان كل حياته محافظا منزويا ولكن المجتمع يفرز آخريـن ليقوموا بـدور المحرض .

إذاً الفنان هو أول من يحس بالحاجة للتغيير ، فالعامل في المعمل ، والفلاح في الارض ، والموظف في مكتبـه ، هؤلاء يتعاملون مع أنظمـة ومؤسسات رتيبة ، أما الفنان فانتاجه يتعلق بأذواق الآخرين ، وأذواق الآخرين تتحدد بدرجة تطور المجتمع ، وعلاقات الانتاج فيه ، ولذلك يرى المجتمع بعين لا تراه عين الفلاح أو العامل أو الموظف . ومن معرض فني يقيمه الفنان يستطيع أن يحكم على طبيعة المجتمع من خلال تقدير إنتاجه سلبا أو ايجابا ، فيطور انتاجه بما يعزز الافكار التي تؤمن بهـا الجماهير وتتلقى الاستحسان من الاكثرية . وفي العصور السالفة ارتبط الفن بالدين وقصور الحكام ، ولكن لم نسمع في التاريخ أن فنانا أصبح رجعيا فالفن إبداع ، قد يلعب دورا محافظا ، ولكن لا يمكن أن يدير عجلة التاريخ الى الوراء .

وابداع الفنان ناتج من تفاعله مع المجتمع ، يقول الدكتور علاء الدين حسين « هناك طرف آخر في عملية الإبداع الفني ، أو الادبي ، فالفنان مشحون بقوة أحادية الجانب ، وللحصول على تيار الإبداع تلزمه قوة أخرى هي دائرة القراء والمهتمين والمنفعلين ، وهي جزء لا يتجزأ من الفن ، والإبداع الفني يمكن أن يتطور ويخصب عندما يجد قارئا ومستمعا ومشاهدا نبيها ، وعندها تمتلك مشاعر الفنانين عالما ثانيا في قلوب وضمير الملايين ، وعندها يساعد الفن الناس في نضالهم ، ويصبح بالنسبة لهم مصدرا للسعادة والإلهام » .

فالفن إذاً له دور تحريض في المجتمع ، ومن هنا فان دور الفن في الثورة لا يقل عن دور الرصاصة وعلى سبيل المثال لوحة **غرنيكا** للفنان **بيكاسو** التي تصور مأساة قرية غرنيكا التي ابيدت بوحشية من قبل النازية المتحالفة مع حكومة فرانكو الاسباني ، رغم وجود مظاهر مباشرة تشير الى القرية ، أصبحت رمز النضال للثوار ، وكان حاملها يستحق الإعدام في المانيا النازية وفي اسبانيا في حينهـا .

والفن يجب أن يخص كل الشعب ، يقول : لينين « إن الفن يخص الشعب ، ويجب نيمد أعمق جـذوره الى أعمق الجماهير الكادحـة الفقيرة ، يجب أن يكون مفهوما لهذه الجماهير ، ومحبوبا منها ، يجب أن يوحد إحساس هذه الجماهير وفكرها وإرادتها وأن يرفعها ، يجب أن يوقظ فيها الفنانين ويطورهم » بعد هذه المقدمة المبسطة عن دور الفن في الثورة وعلاقته الوثيقة بالمجتمع ، كيف سيعلب الفن دوراً في تحقيق الثورة العربية ؟

إن الثورة العربية ، تنشد المجتمع العربي الاشتراكي الموحد ، فهي في أهدافها تجمع الاصالة بالتجديد ، لهذا فالفن الثوري يجب أن يجمع بين الاصالة والتجديد ، ويمكن بايجاز عرض ملامح للفـن الثوري في واقعنـا العربي .

١ ــ تراث الامة العربية الفني غني بعناصر ثورية ، أقصد يمكن ان تلعب دوراً تحريضيا للتمسك بالاصالة ومقاومة ، كل الافكار الدخيلة التي تشكك بانتمائنا القومي ولا يخفى دور القطع الفنية المكتشفة في بلادنـا إثر التنقيبات ودورهـا في تعزيز الإرتباط بالتاريخ المشترك وهو احد عوامل تكوين الامة العربيـة ، وعلى الفنانين الإستلهام من التراث مضامين أعمالهم بالتقنية المناسبة وابـراز البعد القومي بشكل أساسي .

٢ ـ ابراز التناقض الاساسي في الوطن العربي بين الوجود الصهيوني في فلسطين والوجود العربي عموما . باختيار موضوعات ذات بعد سياسي ، وفن الإعلان يمكن أن يلعب دوراً اكبر في هـذا المجال بالمقارنة مع الاشكال الاخرى للفنون .

٣ ـ التاكيد على اهمية الوحدة العربية ، ويمكن خدمة هذا الهدف الثوري بعدة سبل فنية أذكر منها .

آ ـ إصدار طابع بريدي باسم الوحدة العربية ، بتصميم موحد لكل الاقطار العربية باشراف هيئة عربيـة ، ويمكن تبديـل التصميم سنويا ، يلصق مجانا او بسعر رمزي على المراسلات الداخلية والخارجية .

ب ـ تصميم صرح باسـم الوحـدة العربية في كل عاصمة عربية ، يزار في المناسبات الوطنية والقومية على غرار نصب الشهداء او الجندي المجهـول ، ويدخـل في بروتوكولات الضيافـة الرسمية ، فعندما يزور مسؤول عربي او اجنبي قطرا ، يزور صرح الوحدة العربية بالضرورة ، وتسلط الاضواء على هذه الزيارة فيبرز اسم الوحدة العربية بشكل ملفت للنظر .

ج ـ تصميم لحن أو نشيد باسـم الوحـدة العربيـة ، يعزف في المناسبات الوطنيـة والقوميـة وعنـد استقبال الضيوف ، الا يكون سارا لكل عربي عندما يسمع لحنـا باسم الوحـدة العربية يعزف عند التقاء شقيقين عربيين مسؤولين ، بدلا من عزف لحن هذا القطر وذاك . وماذا سيكون تاثيره العالمي إذا تبنت كل الاقطار العربية هذا اللحن الموحد .

ولا تحتاج هذه الإجراءات الى تكاليف ماديـة ، واختيـار التصميم يمكن أن يكون عن طريق مسابقة باشراف جامعـة الدول العربيـة .

٤ ـ الإنطلاق من الواقعية الثورية ، التي تنتقد الواقع نقدا موضوعيا وترسم ملامح المستقبل ، ويكون الفن واقعيا ثوريا بمقدار ما يعزز أسس البناء الاشتراكي في الواقع العربي ، رفض الاستغلال ، والتركيز على العمل والتعاون ، وتعزيز دور القطاع العام .

٥ ـ توظيف التراث القطري ، لتعزيز الارتباط القومي ، وبمعنى آخر عناصر الفن القطرية (المحلية) يمكن وضعها في إطار قومي ، فيكون الجمع بين ما هو وطني في الفن وما هو قومي .

تلك هي بعض ملامح فن عربي يخدم اهداف الثورة العربية ، فمن المسؤول ؟

إن مسؤولية غياب الفن الثوري العربي تتوزع على جهتين اساسيتين همـا :

اولا : السلطة الحاكمة : التي تمتلك وتشرف على وسائل الإعلام المختلفة ، وبدون وضع وسائل الاعلام في خدمة الفن ، لن يكون هناك فن ثوري جماهيري ، كما أن السلطة توجد أو تحد من قيام نقابات للفنانين ، وتضع حدودا حمراء لحرية الإبداع ، وفي هذه الحالة يفقد الفن مضمونه الثوري ، بالاضافة الى غياب الصحافة الفنية بشكل عام . رغم وجود صحافة فنية تخدم الفن التجاري الذي ينقل القارىء الى الاجواء الحالمة والليالي الحمراء ، وإذا وجدت صحافة جادة ، تعانى من صعوبات كبيرة ، اقلها مسألة التوزيع . إن حديثي يشمل البعد القومي للفن ، فبعض الاقطار العربية ومنها سورية تولي الفن بكل أشكاله اهمية كبيرة ، ويلقى الفنانون التكريم والدعم من قبل القيادة السياسية في اعلى مستوياتها .

ثانيا : الفنانون : يتحملون قسطا من مسؤولية غياب الفن الثوري العربي ، إن الفن ابداع ولا يأتي الإبداع بقرارات ومراسيم وهذا لا خلاف عليه ، ولكن الالتزام بقضية تحدد وجود الفنان ، بوجود مجتمعه لا تقتل الإبداع ، فالالتزام يصقل الإبداع وكل فنان له امتداد اجتماعي ، بمعنى تفاعله مع الآخرين ، يؤثر ويتأثر ولهـذا لا مبرر للانسلاخ من الواقـع والهروب بحجة أن الفن عملية ابداع ذاتي وعلى الفنانين تقع مسؤولية تحقيق مقولة « الفن للقضيـة » .

هل للفن قدرة على تغيير الواقع ؟

في ختام هذا البحث يمكن الإجابة على هذا السؤال ، لندرك الى اي مدى يمكن للفن أن يغير في الواقع .

إن الفن كانعكاس للواقع الاجتماعي ، يؤثر فيه ايضا ، بعاملين هما :

اولا : العامل الفكري : او الايديولوجي لأن الفن بموضوعاته يلامس قناعات الاخرين ويعدل من نظراتهم الفلسفية الى الطبيعة والمجتمع ، ولعل الكهنة أدركوا اهمية الفن في ترسيخ العقائد ، فازدانت المعابـد بالصور والتماثيل الفنية المعبرة .

ثانيا : العامل التحريضي : للفن دور تحريضي ، ودرجة هذا التحريض تتوقف على شكل الفن فالاغنية السياسـية لها تاثير تحريضي اكبر مـن اللوحة الفنية ، ولهـذا فالفن يمكن أن يغير مواقف الافـراد ويشحنهم بطاقات اكبر للعمل .

ولا أدل على ذلك من الحماس الذي ينتاب الجنود عند عزف المرش العسكري .

لا شك ان معالجة مسالة الفن والثورة العربية في بحث قصير لن تسد كافة الثغرات ولن تجيب على كل التساؤلات ، واردت لهذا البحث ان

يكون مدخلاً لمناقشة العلاقة بين الفن والثورة في محور خاص او في ندوة ، يشارك فيها كبار الفنانين والمفكرين العرب ، لرسم معالم فن ثوري عربي يجسد صورة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .



الطليعة العربية في تونس